شعراء النصرانية بعد الاسلام

شعراء النصرانيّة في عهد الدولة العباسيّة

للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

٢٦ ابن ابي الخير سلامة الدمشقي

﴿اصلهُ دينهُ زمانهُ﴾ هو ايضاً احد الشعراء النصارى الذين نظمهم في تراجمهِ عماد الدين الكاتب الاصفهاني في كتاب خريدة القصر وجريدة العصر. على انهُ لم يزد في تعريفهِ لهُ على سطرين فقال (Ms de Paris 1414, ff. 71r et Ms de Leiden, p. 245, n° 71) «هو ابو الحسن بن ابي الخير سلامة كان نصرانيًّا من اهل دمشق وكاتباً لتاج الملوك اخي الملك الناصر فيهِ ادب وذكاء»

فمن هذه الالفاظ القليلة يظهر اوّلاً اصلهُ فانّهُ من اهل دمشق. ثم دينُهُ النصراني وزمانهُ اذ عاش في الفصل الثاني من القرن السادس للهجرة. يتقرّر ذلك من كونهِ كاتباً لتاج الملوك اخي الملك الناصر. ولكن من هو تاج الملوك ومن هو الملك الناصر؟ اذ لم يزد العماد في هويّتها وقد عُرف غيرهما بتاج الملوك وبالملك الناصر فبقينا مرتابين في امرهما الى ان تحقّقنا انّ تاج الملوك هذا هو اخو الملك الناصر يوسف بن أيوب الشهير بصلاح الدين فاتح الشام والجزيرة ومصر المولود سنة ٥٣٢ هـ والمتوفى سنة ٥٨٩ (١١٣٨ــ١١٩٣م). وكان للسلطان صلاح الدين عدّة اخوة اشتهر منهم الملك العادل سيف الدين ابو بكر. وكان اصغر اخوتهِ تاجَ الملوك هذا واسمهُ تاج الملوك بوري تبع اخاهُ صلاحَ الدين لمّا خرج من مصر قاصداً فتح الشام والجزيرة. فبلغ الى الكرك وسار الى الحمى فاقرّ اخاهُ تاج الملوك على الناس وامرهُ بان يسير بهم يمنةً. ثمّ لحقوا بالسلطان بعد اسبوع بالازرق وهو ماء في طريق حاجّ الشام وذلك في اوّل سنة ٥٧٨ (١١٨٢م) هذا ما رواهُ شهاب الدين المقدسي في كتاب الروضتين

ثم مشى في خدمة اخيهِ السلطان لفتح بلاد نور الدين زنكي وحاصر معهُ الموصل وكان صاحبُها عماد الدين زنكي بن مودود قال ابن شدَّاد في تاريخ صلاح الدين : «ونزل تاج الملوك بوري اخو صلاح الدين على باب العمادي وجرى بينهم القتال ففُتحت الموصل . ثمَّ عاد السلطان الى حلب فحاصرها وفتحها في صفر سنة ٥٧٩ (١١٨٣م)». قال ابو الفداء في تاريخهِ : «وكان في جملة من قُتل على حلب تاج الملوك بوري بن أيوب اخو السلطان الناصر . وكان كريماً شجاعاً طُعن في ركبتهِ فانفكَّت فمات منها» . وقال ابن شدَّاد في سيرة صلاح الدين : وشقَّ امرُ موتهِ على السلطان وجلس للعزاء . . .

ففي خدمة تاج الملوك هذا كان ابن ابي الخير سلامة النصرانيّ كاتباً وكان مقيماً في دمشق وطنهِ كما يلوح من شعره

ولنا في تعريف زمانهِ انَّ عماد الكاتب ذكر تاريخ بعض شعرهِ في السنة ٥٧٢ (١١٧٦م) لكنَّهُ لم يذكر سنة وفاتهِ

﴿ادبهُ وشعرهُ﴾ رأيت في ما قالهُ عماد الكاتب انَّ ابا الحسن بن ابي الخير سلامةَ «كان فيهِ ادب وذكاء» ثمَّ روى لهُ عدَّة قِطَع شعريَّة فاتَّسع بروايتها على خلاف عادتهِ في وصف معظم الشعراء الذين ذكرهم . وبين قصائدهِ ما قالهُ في تاج الملوك سيدهِ ومنها يتَّضح انَّهُ لم يكن فقط كاتباً بل كان شاعرًا ايضاً مقرَّباً من الملوك . ولعلَّهُ صنَّف ديواناً وقف عليهِ العماد الاصفهاني فنقل عنهُ المقاطيع المذكورة التي تشهد لهُ بحسن القريحة وسلامة الذوق . فممَّا نقلهُ قولهُ يمدح تاج الملوك من ابيات صنَّفها في زمن الربيع (من البسيط) :

تاجَ الملوك ادام اللهُ نِعْمَتَهُ أسخى البريَّةِ من عُجْمٍ ومن عَرَبِ
مولًى أياديهِ في ارضٍ يَحُلُّ بها أجدى واحسنُ آثارًا من السُّحُبِ
تفتَّحَ النَّوْرُ فيها من أناملهِ فتَنجلي منهُ في أثوابهِ القُشُبِ
حتى ترى روضَها يحكي مواهبَهُ فالبعضُ من فضَّةٍ والبعض من ذهبِ

ولهُ من قصيدة بعث بها اليهِ في الربيع (من السريع) :

مولاي مجدُ الدين قد عاوَدَتْ دِمَشْقَ من بعدك أشجانُها

نَيْرَبُها (١ قد مات شوقاً الى م المولى ووادِيها ومَيْدانُها
مالت اليهِ في بساتينها من شدّة الأشواق اغصانُها
وأقسَمتْ من بعدهِ لا صَحَا من لَوْعة الأشجانِ نَشوانُها
ومَاسَ من اشواقهِ (٢ آسُها واهتزّ اذ بانَ لهُ بانُها
وغنّتِ الاطيارُ من شَجْوها واختلفت في الدَّوح الحانُها
واصفرَّ في الروضةِ مَنْثورُها من شوقهِ واخضرَّ رَيْحانُها
رَقرقتِ الدمعَ عليهِ كما ترقرقتْ بالماء غُدرانُها
فلا خَلا يا خيرَ هذا الورى بُطنانُها منك وظُهرانُها
تلك هي الجنّةُ لكنّها مذ غِبتَ عنها غابَ رِضوانُها

(قال) ولهُ فيهِ وقد وعدَهُ بخلعةٍ (من البسيط) :

يا مَنْ لهُ الشكرُ بعد الله مفترَضٌ عليَّ ما عشتُ في سرّي وفي عَلَني
ان كان غيرُك لي مولًى أؤمّلهُ وأرتجيهِ فكانت خلعتي كفني

(قال) ولهُ يقتضيهِ بالخلعة وقد عزم على السير الى العسكر المنصور (من المجتث) :

مولايَ جُدْ لي بوَعْدي من قبل سَير الركابِ
أنعِمْ عليَّ بثوبٍ تَرْبَحْ جزيل ثوابي
ثوبٌ تكاملَ حُسناً كخُلقك المستطابِ

١) قال ياقوت في معجم البلدان (٤: ٨٥٥) : « نيرب قرية مشهورة بدمشق على نصف فرسخ في وسط البساتين اتره موضع رأيته »
٢) في الاصل : اسواقهِ

كـأنهُ زَمَنُ الوصلِ م في زمان الشبابِ
وفُوطَةٌ مِثلُ شِعري رقيقةٌ او شرابي
طويلةٌ مثلُ ليلي لمَّا جَفا أحبابي
كأنّها رمَضانٌ اذا اتى في آبِ

قال العماد: ومن محاسنهِ في تاج الملوك (من مجزوء الكامل) :

يا حبَّذا ابواهُ اذ ولداهُ من كرَمٍ وخيرِ
وكذاك قد يُستَخرَجُ م الدُّرُّ النفيس من البُحورِ
والشمسُ من انوارها يبدو سَنا القمر المنيرِ
ما زال منـذ فِطامهِ في عَقل مُكتهِلٍ كبيرِ
مولًى حَوى سِنَّ الاكا بِرِ وهو في سنّ الصَغيرِ
ولقد رقَى درَج الأوا ئلِ وهو في الزمن الاخيرِ

وقال فيهِ ايضاً يستجديهِ (من الكامل) :

يا من يَعُمُّ سماحُهُ ونَوالُهُ كرَماً كما عمَّ السحابُ المُمطِرُ
ويفوح ما بين الأنام ثناؤهُ فكأنهُ في كلّ حينٍ عَنبَرُ
اني شَقِيتُ وفي ظِلالك أنعُمٌ ولقد ظَمِئتُ وفي يمينك أبحرُ
ولقد ذللتُ وانتَ حصنٌ مانعٌ ولقد ضللتُ وانت بدرٌ نيّرُ
اغنَى جداكَ الناسَ الّا فاتني فالله يُغني مَن يشاء ويُفقرُ
فلئن نظرتَ اليَّ نظرة مُجمِلٍ فلأنت أولى بالجميل واجدَرُ

ثم قال عماد الدين صاحب الترجمة . ومدحني (اي ابن ابي الخير) وهي في حُسن

القريدة في ذي القعدة سنة اثنتين وسبعين (وخمسمائة) (١١٧٧م) (من الكامل) :

أمُطيلَ عَذْلي في الهوى ومُفنّدي ... هل انت من غيّ الصَّبابة مُرْشدي
هيهاتِ ما هذا الكلامُ بِزاجري ... فأنقُصْ أبيتَ اللعنَ منهُ او زِدِ
انت الفِداءُ ومَن يلومُ لشادنٍ ... انا في هواهُ مضلّلٌ لا اهتدي
يجلو لعينك غرّةً في طُرّةٍ ... فيُريك احسنَ ابيضٍ في اسودِ
يسطو على عشّاقهِ من قدّهِ ... وجفونهِ بمثقّفٍ ومهنّدِ
قمرٌ يَظَلُّ الماءُ في وَجناتهِ ... والنارُ بين ترقرُقٍ وتوقّدِ
ومن العجائب أنّ نارًا خالطَتْ ... ماءً وانّ ضِرامَها لم يخمُدِ
وكذاك ماءُ الدمع إنْ تَنْضَحْ بهِ(١ ... نارَ العبابة والأسى تتوقّدِ
فصبابتي لمّا تَخِفّ وأدمعي ... لمّا تَجِفّ وزفرتي لم تَبرُدِ
كم بتُّ ارعى الفَرْقدَيْن كلاهما ... شَغَفاً بمن يرنو بعينَيْ فرقدِ
آليتُ ارقدُ في هواهُ ومن يكن ... ذا لوعةٍ وعلاقةٍ لم يرقُدِ
علّ الليالي يكتسبنَ بشاشةً ... يوماً فتنجز بعد مَطْلٍ مَوْعِدي
ان رقّ لي بعد القَساوةِ قلبهُ ... فالماءُ يقطر من صِفاح الجَلمدِ
فاجعلْ لِحاظك في محاسنِ وجههِ ... ان تستطعْ نظرًا اليهِ وردّدِ
تنظر الى الانوار بين مُمَسَّكٍ ... ومُثَبَّجٍ ومُنَرْجَس ومورّدِ
فكأنها نَوْرُ الربيع اذا بدا ... او حسنُ خطِّ محمّدِ بن محمّدِ(٢
هذا عِماد الدين والدنيا معاً ... وملاذُ كلِّ مؤمّلٍ او مجتدي

---

١) ويُروى : أنضَح ٢) هو اسم الممدوح عماد الدين الاصفهاني

هذا الذي ما أغلقت ابوابهُ ... من دون مُستَجدٍ ولا مُستنجِدِ
هذا الذي أحيا العلوم واهلها ... بعد الرَّدى والعرفُ إحياءُ الردي
وابانَ منها كلَّ نهج دارسٍ ... دَرْسَ الرسوم من الديار الرُّصَّدِ(١
بيضاء حسنٍ ما دجَتْ الّا بدا ... فأضاء مثلَ الكوكبِ المتوقدِ
لو عاش حينئذٍ فرامَ تشبُّهاً ... عبدُ الحميد(٢ بخطهِ لم يُحمَدِ
يَقِظٌ لهُ القلمانِ في انشائهِ ... وحُسامهِ في مَصدرٍ او مَوردِ
انْ حاول الانشاء يوماً ما فَيا ... ناهيك من درٍّ هناك منضَّدِ
ويُضمِّن اللفظَ البديع مَعانياً ... اشهى من الماء الفرات الى الصَّدِي
وكأنَّ خطَّ حسامهِ في طرسهِ ... شعرٌ تَنَمْنَمَ في عوارضِ أغيَدِ
لو قُلِّد الدنيا كفاها وحدَهُ ... في الحالتَينِ ولم يُرِدْ من مُسعِدِ
واقام منتهضاً بكل عظيمةٍ ... منها وقوَّم كلَّ ما متأوِّدِ
هذا وامَّا الفقهُ فهو إمامُهُ ... فبمامهِ في الفقه كلُّ مُقتدي
فلوَ انَّ اسعد عاش بعد وفاتهِ ... يوماً فأجلَسهُ(٣ بهِ لم نسعدِ
واذا انبرى للشعر خلتَ قريضَهُ ... خَوْقَ درٍّ في نحور الخُرَّدِ
شعرٌ ترشَّفهُ النفوس كأنَّهُ ... لفظُ الحبيب مقرِّراً للموعدِ
او طيبُ وَصلٍ بعد كَرْهِ قطيعةٍ ... من ذي انبساط بعد طول تحقُّدِ
واذا تفاخر بالأروم معاشرٌ ... فله العلاء عليهم بالمحتدِ
ما زال يخبر فضلهُ بل نبلهُ ... عن حسن شيمتهِ وطيب المَولِدِ

١) ويروى : الصُّدِ
البيت لابي الفتح سنة ٢٣٢هـ (٨٤٧م)
٢) هو عبد الحميد ابو غالب صاحب الرسائل
٣) وفي الاصل . فاجلد

جَلَّ الذي اعطاكَ يا ابن محمَّدٍ في كلِّ فضلٍ باهرٍ طولَ اليدِ
اقسَمْتُ بالكرم الذي اوتيتَهُ اولاكَ ما اتَّضَحَتْ سبيلُ السؤْدُدِ

وقال عماد الدين: وكتب اليَّ ايضاً (من الطويل):

ألا قُلْ لمن ذمَّ الزمانَ جهالةً وعنَّفَهُ في ما جناهُ وفنَّدا
دعِ العجزَ واهضِ غيرَ وانٍ الى المرى يكُنْ لك فيما انت راجيهِ مُسعدا
فانَّك لم تبلغ من الدهر طائلاً فتَحمدهُ حتى ترور محمَّدا
وانَّ عماد الدين امنعُ مَعقِلٍ اذا ما رماكَ الدهرُ يوماً تعمَّدا
وأَسيَرُ هذا الناس فضلاً وسؤْدداً وأغزرُهم براً (١ واكثرهم ندًى.
تفرَّدَ إلَّا انَّهُ الناسُ كلُّهم وان كان في عَلْيائهِ قد تفرَّدا
مُعِزٌّ مُذِلٌّ مانحٌ مانعٌ مماً يُرجَّى ويُخشى واعدًا متوعِّدا
اذا ما رأى يوماً بإبعادهِ العِدى اقام خوف الانتقام وأقعدا
جديرٌ بِحَلِّ الامر أشكلَ حلُّهُ برأيٍ بهِ في كلِّ عشواءَ يُهتَدى
لهُ قلمٌ ما هزَّهُ في مُلِمَّةٍ من الدهر الَّا هزَّ سيفاً مهنَّدا
اذا انسلَّ من بين الانامل خِلْتَهُ يُنظِّم في القرطاس درًّا مبدَّدا
اذ ما رأى يوماً بعينٍ كحيلةٍ رأيتَ لديهِ ناظرَ الرمح ارمدا
وان يَتحرَّكْ يَسكنِ الخطبُ فادحاً ويبيضُّ وجهُ الرُّشد ان هو سُوِّدا
لأنت عمادُ الدينِ احسَنُ شيمةٍ واطيبُ هذا الناس اصلاً وتحتِدا
فلو جاز يوماً ان يُخلَّدَ سيِّدٌ كريمٌ بما أسدى لكنتَ المخلَّدا

١) وفي نسخة: واغوزهم ندًا

ومما استحسنهُ لهُ العماد الاصفهاني قولهُ (من البسيط) :

يا حبذا يومُنا والكاسُ ناظمةٌ نَظْمَ الحُبابِ عليها شملُ احبابِ
ونحن بين أزهارٍ تَحِفُّ بانهارٍ م وما بين اقداحٍ وأكوابِ
والماءُ تلعبُ ارواحُ النسيم بهِ ما بين ماضٍ وآتٍ ايَّ تلعابِ
كأنهُ زَرَدُ الزَّغف السوابغ أوْ نَقْشٌ لأطيارٍ(١ او تفريك اثوابِ

وروى لهُ ايضاً في الشوق ووصف الربيع (من البسيط) :

سَلِ الحبيبَ الذي هام الفؤادُ بهِ هل يذكر العهد انَّ العهدَ مذكورُ
أيام نأخذُها صهباءَ صافيةً يمسي الحزينُ لديها وهو مسرورُ
يَسعى بها غصنُ بانٍ في كثيبِ نقاً لهُ على القوم ترديدٌ وتكريرُ
اذا اتاكَ بكأسٍ خلتَها قبساً يَسعى بهِ في ظلام الليل مقرورُ
يُعطيكهُ وهو ياقوتٌ ويأخذهُ اذا أشرتَ اليهِ وهو بلّورُ
والارضُ قد نسجت ايدي الربيع لها وشياً تردَّت بهِ الآكامُ والثورُ
فانتيرُ مجتمعٌ فيها ومفترقٌ والزهرُ منتظمٌ فيها ومنثورُ
كأنَّ منثورها والعين ترمقهُ دراهمٌ حين تبدو او دنانيرُ
ما شئتَ من منظرٍ في روضها نَضِرٍ كأنما نَوْرُهُ من حُسنهِ نُورُ
نَظَلُّ اطيارها تشدو بها طرباً اذا تبدَّت من الصبح التباشيرُ
من بُلبلٍ كلَّما غنّاكَ جاوبهُ فيها هزارٌ وقُمريٌّ وشُحرورُ
كأنما صوت ذي صَنجٍ يجاوبهُ من ذاك نايٌ وذا بَمٌ وذا زيرُ

(الى صلة

(١ وفي الاصل : نقش اطيار